جيزيل حليمي

قضية النساء ...

صدر اخيرا للكاتبة التونسية الاصل جيزيل حليمي كتاب باللغة الفرنسية بعنوان « قضية النساء » اثار ضجة كبيرة في الاوساط الاجتماعية والثقافية . وننشر فيما يلي ترجمة الفصل الاول منه ، وفيه تمهد المؤلفة لطرح المشكلة من جذورها بتصوير واقع فتاة تعيش في مجتمع منغلق صارم .

طفولة فتاة

يرفع ادوار سماعة التلفون ، فيقول مخابره :

ـ طفلة صغيرة ! رزقت طفلة صغيرة !

يقول ادوار :

ـ شكرا .

ويوضح الصوت على الجانب الاخر من الخط :

ـ طفلة صغيرة لطيفة جدا ! مبروك !

فيردد ادوار :

ـ شكرا .

ويعلق السماعة . وطوال خمسة عشر يوما ، حين كان ابي ادوار يسأل ان كانت زوجته قد وضعت ، ظل يجيب بلا تردد :

« لم تضع بعد ... عما قريب .. »

خمسة عشر يوما ليعتاد سوء الطالع هذا : رزق بنتا !

ثم ينتهي به الامر الى الاقتناع بانه « انقذ الشرف » باعتبار انه كان قد رزق صبيا بكرا . وسيعترف اخيرا :

« نعم ! لقد وضعت : انها بنت ... »

وكنت انا ، تلك البنت .

وهكذا تبدا المغامرة .

كنت ما ازال طفلة صغيرة حين رووا لي قصة ولادتي . وانا اذكر اني سمعت صوت فصال التلفون ذاك ، وتلك الـ « مبروك » المتشنجة كانهما قرعة حزن . وقد لاحقاني طويلا وما زالا يلاحقانني . انهما يحملان لي لعنة ان اكون قد ولدت امراة . كقرعة حزن ، وفي الوقت نفسه كنداء ، كرحيل . واحسب ان التمرد استيقظ فيّ مبكرا جدا. تمرد قاس جدا ، عنيف جدا . ولا شك في انه كان ضروريا لاواجه ذلك الانشقاق الذي ظللت اعانيه طوال حياتي : كنت امراة في عالم للرجال !

مهما ارتددت في ذكرياتي الى الوراء ، فان كل شيء في طفولتي، وتربيتي ، ودراستي ، في كل ما كان مباحا او ممنوعا ، كان لا بد ان يذكرني اني لم اولد الا امراة . ولم تُرب ، انا واختي كما رُبّي اخوتنا على الاطلاق .

كانت تربيتنا تنطلق من ذلك التمييز الدامي : « انت بنت . يجب ان تتعلمي الطبخ وتدبير المنزل . ويجب ان تتزوجي ، باسرع ما يمكن . اما هو ، فانه صبي . ويجب ان يتعلم ، وسوف نجد الوسائل لذلك ، باي ثمن ، وان يكسب جيدا معيشته . » وهكذا يكون زواج الفتى قضية شخصية . اما زواج الفتاة ، فهي قضية الاهل : ان ذلك لا يعنيها . والحق ان اهلنا كانوا يشرحون لنا الامر : ان ولادة بنت تمثل مسؤولية فظيعة . فلا بد طبعا من الاضطلاع بها . ويجب خصوصا التفرغ عنها لزوج ، باسرع ما يمكن .

اعتقد ان امي قد لجأت الى نوع من الضراوة ، ربما كان لا واعيا، للحفاظ على هذا التمييز . كما لو انها ، في اعماقها ، كانت تريد ان تكرر ما كانت قد عانته شخصيا . وكذلك ابي . ولكنه كان ، على نحو ما ، اكثر حيادا . كانت لديه فسحة اكبر . كان « الرجل » .

كانت امي ضحية تربيتها ، فتزوجت دون الخامسة عشرة.ورزقت ولدها الاول وهي في السادسة عشرة . كانت اذن مجروحة ، ولكن معتدة ، معتدة باموميتها ، ومعتدة بجراحها ، كبعض الشهداء . كانت مضطهدة مقهورة منذ نعومة اظفارها ، منكورة في كينونتها ، منتقلة بلا تمهيد من سلطة رهيبة لجدي ، رب « القبيلة » الحقيقي ، الى سلطة ابي ، زوجها ، فكان طبيعيا ان تلجأ بدورها الى الاضطهاد والقهر .

وحين كنت ارفض الزواج في السادسة عشرة ، كانت تقول لي : « حين كنت في سنك ، كان لي اولاد . » كانت تريد ، من خلالي ، ان تعيش حياتها مرة اخرى . وكنت ادرك جيدا هذا المسعى ، كما لو اردت تبريره . ان تأييد الاشياء يثير من العقبات اقل مما تثير ارادة تغيير هذه الاشياء . شانها في ذلك شان نساء اليوم ، هانيك اللواتي لا يرون الاعتراف بوجود مشكلتنا . فالاعتراف بها يجبرهن على تحديد انفسهن . وكذلك على الاقرار بان بعضهن يمكن ان فلتن مما قدر عليهن من مصير . تلك هي كل قصة هذه الطمانينة الناجمة من انعدام المعرفة.

واذن ، فان الاسرة المثالية ، في نظر والدي ، لم تكن مصنوعة الا من الذكور . فلو انهما سئلا ، عند ولادتي ، بعد ان رزقا صبيا ، عما كانا يتمنيانه ، لاجابا بالتاكيد : « صبيا اخر . » ولو سئلا : وبعد هذا الصبي الاخر ؟ لاجابا : صبيا ثالثا . »

ومهما يكن من امر ، فقد كنا خمسة اولاد : اخي الذي يكبرني بعامين ، وانا ، واخ صغير احترق بشكل فظيع تحت ناظري . كان له من العمر عامان ، وانا اربعة . ثم كان لي اخت واخ . اسرة كبيرة العدد ، ربيت في ظل الفقر ، لان والديّ كانا فقيرين ، لا يملكان

شهادات ولا ثقافة . لم يكونا قد حازا حتى على الشهادة الابتدائية . وكان ابي قد بدأ حياته خادما في دكان . وكانت طفولتي كلها مهدهدة بحكايات الجوارب التي لم يكن يستطيع ابتياعها . كان يسير حافي القدمين لشراء البضائع او ايصالها . ولكن ما بذله من جهد وضراوة ، جعله عصاميا ، فاصبح سكرتيرا ثم كاتبا في مكتب محام . ان ابي هو من يوصف بانه « شخصية » . وواضح انه طبعني بطابعه . كان يوحي لي ـ وما يزال ـ باعجاب كبير .

كانت مواردنا اذن ضئيلة . فكان لا بد من ان نحدد ، بسلم الافضليات ، ما كان يمكن ان يعمل باموال البيت . والحق ان المشكلة لم تطرح اصلا : كان على البكر ان يشرف اسم العائلة ، وان يخرجنا ، اذا امكن ، من هذا الفقر . لان الفقر عيب . وحتى في الوقت الراهن، يشق على اهلي ان يسمعوني اقول اني عشت طفولة فقيرة . يجب نسيان ذلك ، والانقطاع عن التحدث به . كان والداي قد قررا ، رغم كل شيء ، ان تكون لاخي مهنة حرة ، وهذا ما لم يكن قد شوهد قط في الاجيال السابقة . ان يصبح محاميا ، اذا امكن : كانا يحلمان بمهنة تمحو البؤس ، وتسد الثقوب ، وتسترد « الشرف » خاصة .

لست احتفظ بذكرى طفولة حزينة ، لان الفقر في تونس يسبح في النور ، في الشمس . كانت الحرارة والبحر يمتزجان دائما بالعابي. كنت استحم مع الصبية ، هناك حيث كانت السفن تمر ، بين كتل رصيف المرفأ . وكان ينبغي ان احسن السباحة ، وان اكون جريئة . بل كان لا بد من ان اكون « سوقية » بعض الشيء ، كما كان يقول ابي. ثم انني كنت العب كرة القدم ، وهي رياضة اخرى من رياضات البلاد المتخلفة . وجميع التسليات التي لا حاجة فيها الى التجهيز ولا التعليم ولا التوظيف المالي . اننا نسبح عراة ، ونلعب كرة القدم حفاة الاقدام، منذ نعومة الاظفار .

ظللت ، حتى سن معينة ، العب مع اخي واصدقائه . وكنت الفتاة الوحيدة ، وهذا ما كان يقلق اهلي قلقا غامضا . ولكنهم لم يكونوا يقولون شيئا لاني كنت اذهب مع اخي ، حامي شرف العائلة ، وفقا لقاعدة مقدسة من قواعد بيئتنا . ولا فائدة من ان اضيف ان تلويث الشرف لا يمكن ان يأتي الا من النساء .

كانت ثمة مبادئ ينبغي الا تنتهك ابدا . اذكر جيدا ، على سبيل المثال ، ان علي ان اكون في البيت عند هبوط الليل . ذلك ان الليل كان يشجع على الشر ، وكان يسهل سقوطه فريسة الشيطان . وهكذا كانت مدة العابنا ومتعنا مرتبطة بالفصول . كان غياب الشمس القصير المحتوم يصعقنا ، فكنا نعدو عدوا جنونيا للعودة الى البيت ، خوفا من العقاب الذي كان في الغالب قاسيا . كان والدانا يربياننا تربية صارمة .

انني أتمثل تمثلا واضحا جدا ، مهما تباعدت في الزمن ذكرياتي ، تلك الاختلافات المعاناة ، ذلك الفصل : ذكر ـ انثى . اعرف ان امي كانت ، وانا بعد صغيرة جدا ، في حوالي السابعة او الثامنة من العمر ، تجبرنا على تنظيف ارض البيت . (ليس في تونس ارضية خشبية ، بل بلاط مرصوص على الارض) ولم يكن واردا ان اطلب ذلك من اخي الذي كان مع ذلك اكبر واصلب جسما ، منا نحن البنات. كان يجب ان ارتب واغسل الصحون . في البيت ، لم يكن للرجل شيء يفعله قط . فقد كنا ، نحن البنات وامي ، هناك لنخدمه .

وانما احسست بعمق التمييز حين تقدمت بنا الدراسة . فبعد الشهادة الابتدائية كان واضحا ان اخي سيتابع درسه . وكانت العائلة قد قررت ان تحرم نفسها كل شيء ليحصل على شهادة . وفي هذه الاثناء ، كنت قد تقدمت وحدي . فكان يتعرض للمعاقبات . كان يغش، وكان يزور التوقيع الابوي على دفتر العلامات المدرسية . وكنت انا امضي في سبيلي ، فاحقق نجاحا بعد نجاح . ولكن لم يكن احد يسألني اي شيء . والحق انه لم يكن هناك من يلاحظ ذلك .

كنت اعلم ، وانا بعد في العاشرة ، انه لا ينبغي لي ان اعتمد على جهد مالي لاهلي يساعدني على الذهاب الى الليسيه التي كانت تتقاضى اقساطا مرتفعة بعض الشيء . وكنت قد علمت ان ثمة مباراة لنيل المنح ، مفتوحة فقط لفئة اجتماعية معينة من الطلاب ، هي الفئة التي كنت انتمي اليها : الطلاب الفقراء . وكان النجاح يتطلب اظهار مزايا خاصة . وقد تقدمت الى الامتحان ، فكنت مجلية كما اذكر ، ونلت علامات جيدة جدا ، ولكن لم يكن احد يتنبه اليها . ووصلت الى البيت لاقول : « انني الاولى في اللغة الفرنسية » فكان من نتيجة ذلك ان ثارت مشكلة بسبب ان اخي كان الاخير في الرياضيات . كان رجلا ، وكان مستقبله كرجل يشغل الحيز كله . الى حد الاختناق . كانت العناية كلها متجهة اليه . ولم اكن واثقة حتى من انهم كانوا يصغون الي حين كنت اتحدث عن اساتذتي ودروسي . وكان لا بد لي من ان اجمع كثيرا من الوان النجاح ، وان اتفوق في امتحان الليسانس بالمعهد حتى يبدأ اهلي يقولون : « لا بأس بما تفعله . ولكن ربما كانت حالة استثنائية بعض الشيء ؟! » ولكن ذلك لم يكن في ذلك العهد يهمهم ، كان هذا ثانويا .

ثم جاءت اللحظة التي كان علي فيها ان اقرر الزواج . وكان واضحا ان الزواج معناه ان اوقف دراستي . وفي تلك الحقبة ، كانت امي تتمنى ان ازوج لبائع زيت غني جدا ، فضلا عن انه لطيف . وكان في الخامسة والثلاثين ، وكنت انا في السادسة عشرة . وكان هذا طبيعيا في امور الزواج ، في تونس .

ولم اكن اريد الزواج . كنت اريد الدرس . وما زلت اتمثل امي وهي تضع أصبعها على صدغها وتقول : « جيزيل لا تريد ان تتزوج ، بل ان تدرس ... » كما لو ارادت ان تعنى بهذه الحركة « ان هذه الفتاة غير طبيعية ! انها حقا غريبة ! » وكان الظن انني ساشفى من ذلك مع الزمن ...

كان اخي قد اعاد صفه مرتين . فاتيح لي بذلك ان ادركه ، وهكذا التقينا في الصف نفسه . وفي تلك الفترة ترك الليسيه ، مطرودا كما اظن .

وقد سجل اهلي هذا السقوط من غير تعليق بصددي . ومع ذلك ، فانا اتساءل اذا لم يكن نجاحي قد اعتبر ، في تلك الفترة، دليل شؤم . كنت اقلب قاعدة موضوعة ، نظاما . الا يهتم بي احد ، وان اتابع تقدمي خفية ، كما في روتين يومي ، فان هذا قد يكون مقبولا . اما ان ابرز وانا اهزم الرجل ، ابن الاسرة البكر ، ذلك الذي كان المفروض ان يسلم مشعل الشرف ، فهذا يتجاوز الحد !

واذ ذاك تفاقم الهجوم من اجل تزويجي ، لانه كان لا بد من اعادة الامور الى نصابها : فاذا تزوجت واوقفت دراستي ، فان اهلي سيواصلون تضحياتهم من اجل اخي . بل لا زلت اذكر واقعة هامة اذا اخذنا بالاعتبار مستوى حياتنا : فقد بلغ الامر باهلي انهم اصبحوا يدفعون اجرة دروس خاصة في الرياضيات لاخي . كان ذلك يمثل ، بالنسبة الينا ، بذخا غريبا .

بعد ذلك بسنوات ، كنت انا التي اعطي دروسا خاصة لابن محام كان ابي يقوم عنده احيانا مقام سكرتير . كنت في الصف الثاني بالليسيه . وكنت اريد ، بدروس الرياضيات واللاتينية هذه ، ان ادخر بعض المال : ذلك اني كنت قد عزمت على التوجه الى الجامعة في فرنسا ، وكنت اعرف ان احدا لن يساعدني . وكان الامر اذا مغزى كاف : كان اخي بحاجة الى دروس خاصة ، اما انا ، فكنت اعطي دروسا خاصة ، وابدا في اكتساب قدرة التعلم .

لست ادري اذا كان سلوكي قد فتح امكانيات معينة لاختي التي تصغرني باربعة اعوام ، ام ان هذا السلوك ، بدافع من رد الفعل ، قد

اقام في وجهها مزيدا من الحواجز . وبالنسبة الي ، انا كبيرة اخواتي ، التمس اهلي جميع التفسيرات ، واعطوا جميع البراهين : انها شخصية قوية ، صبي اخطأ جنسه ، وهي عجيبة غريبة ، ان في الاسر دائما من يفلت من النظام القائم ، الخ ...

بالنسبة للمهمات البيتية مثلا ، اقمت حاجزا جذريا . وكانت هناك مراحل مجابهة على غاية العنف . كنت اتدحرج على الارض، وكنت امتنع عن الطعام ، وكنت اقوم باضراب الجوع . الى ان ياتي من يقول لي : « حسنا ، لن تقومي بتدبير المنزل ولا بالغسيل » ولفرط ما احتججت وتمردت ، اقروا لي بالا اشارك بعد بالمهمات المنزلية .

في حين ان الامر كان يختلف بالنسبة لاختي التي تصغرني : فقد قال الاهل لانفسهم انهم ينبغي الا يضيعوها . واذكر انها غسلت الارض كثيرا ، وانها نظفت الثياب والاواني وكوت كثيرا من الملابس .

وهي لم تتمرد مثل تمردي المكشوف ، بل عمدت الى ذلك على نحو اخر : لقد ذهبت ذات يوم . غادرت المنزل هاربة مع رجل كان في مثل عمر ابيها . ايطالي كانت تنتظر منه ولدا . والواقع انها تزوجته بعد ذلك باعوام .

تمردها ، لم تستطع ان تنجزه كما فعلت انا نفسي ، في وسطي، في وسط الظلم . وانا اراه اليوم تمردا مجهضا . فهربا من السلطة الابوية ، ارتمت في سلطة اخرى ، لا شك في انها اكثر اثارة للخوف : مع سيد كان بعيدا عن ان يعترف بها كامراة . وقد قضت اثني عشر عاما قبل ان تخرج من تلك الورطة . كان خط سلوكها يمت الى الهرب اكثر مما يمت الى الهجوم .

ان ما اقوله هنا قد يبدو قاسيا بالنسبة لكائنات اظل ، عاطفيا ، مشدودة اليها جدا ، ولكني احاول ان اكون موضوعية . ان اقول كيف حدثت الامور . وهذا لا يغير شيئا مما احس به لامي ، واختي، وابي، هؤلاء « الضحايا » . انني لا اريد ان ازعجهم . اريد ان اوضح لهم، من « الداخل » . انني اشرح لهم ولي الارتهان الذي كان ارتهاننا ، ويظل ، الى حد كبير ، ارتهانهم . انني اكشف وافضح . وعلى نحو ما ، اعيد لهم اعتبارهم . فانا على اي حال منبثقة منهم ، من تلك البيئة ، ولست انسى ذلك .

كنت انا مصممة على ان اشق دربي ، رضي الناس ام كرهوا . وكان دربي يمر اولا بتلك الرغبة اللامحدودة للقراءة ، والتعلم ، والمعرفة . في البيت ، لم يكن ثمة كتاب ، ولا اسطوانة ، لا شيء . ومن حسن الحظ انه كان يحق لي ، وانا انتمي الى عائلة كثيرة العدد، فقيرة الحال . ان استعير مجانا جميع الكتب المدرسية خلال دراستي. وتلك مزية ثمينة ، لان اهلي ما كانوا ليشتروها لي قط . وحين كنت احتاج الى كتاب غير متوفر ، كنت اتدبر امري . كنت اقصد زميلة لي فانسخ لديها الدروس . كنت مسجلة في جميع المكتبات .

كانت رؤية الكتب ولمسها يسحرانني . كنت انظر اليها،واتحسسها باصابعي ، واتشممها طويلا قبل ان انتزع منها سرها . كما لو ان طاقة الكلمات الهائلة ـ التي كنت احسها قوية جدا ـ ينبغي ان لي اولا ماديا ، بالشكل او باللمس او بالرائحة . وكذلك استغراقي في اعماق البحر الابيض المتوسط الزرقاء والخضراء كان يمنحني ـ ولا يزال يمنحني ـ الاحساس بالخلود ، بامتلاء مادي لا يمكن الا ان يذوب في ملاء الطبيعة وان يدوم مثلها . كان يخيل الي ان الفهم المادي لكتاب كان يهبني ، كما لو بالتناغذ ، المعرفة ووسيلة ان اكون حرة .

كنت اقرا ليالي بطولها . خفية ، لاننا كنا اربعة اولاد ننام في غرفة واحدة ، اربعة اولاد نغتسل بالماء البارد ، في الحوض نفسه . كان ينبغي ، بسبب من الضيق ، ان نعيش على ايقاع الجماعة . وبفضل نظام للاضاءة يدوي بعض الشيء وخفي ـ قنديل صغير جدا كنت اصله مباشرة بمنشب كهربائي معلق بالارض ـ كنت اضطجع ارضا واقرا ما حلا لي . من غير ان يعرف اهلي ذلك ، والا لما اقروني عليه . ومن قراءتي الاولى ، اصبت بعض الراحة والهدوء . تلك هي المعرفة ، على نحو ما . كنت اجد فيها اليقين بان امامي دربا طويلا اسلكه ، وكنت استمد منها الطاقات الضرورية للمقاومة . مقاومة العبء المرهق بان اكون قد خلقت امراة .

كنت اشكل مع اختي كتلة واحدة ، برغم الاعوام الاربعة التي تفصل بيننا . وقد عشنا معا « احدانا » هامة جدا : فانا التي علمتها القراءة ، وكنت اصطحبها الى المدرسة (ولم يكن ثمة من يصطحبنا) . وانا التي دربتها على الموسيقى . وكنت بلا ثقافة في هذا الميدان الذي لم يكن هناك من حدثني عنه على الاطلاق . ومع ذلك ، فقد كان هذا يشغفني . وكان استاذ الموسيقى في الليسيه قد لاحظ ذلك وعرض علي ان يعطيني دروسا مجانية في البيانو . وقد تابعت هذه الدروس وقتا طويلا بلذة كبيرة . وما كنت اتعلمه ، كنت القنه اختي تدريجيا .

كنا اذن مترابطتين جدا . ثم حدث الانقطاع بذهابي الى فرنسا حيث كنت اريد ان اواصل دراستي بأي ثمن . كنت في السابعة عشرة ، وكانت اختي في الخامسة عشرة . وقد عانت من هذا الرحيل كما لو كان هجرانا . واني لاذكر الرسائل التي كانت تكتبها لي : كان ذلك في نظرها نوعا من التخلي عنها . لقد وجدت نفسها وحيدة، وتجنبا للضربات ، كبتت تمردها باتخاذ مظهر الخضوع الصامت . الى اليوم الذي انفجر فيه كل شيء حين التقت ذلك الايطالي الذي كان يكبرها بخمسة وعشرين عاما . ففرت معه . لتقل بالاحرى انها فرت من نفسها. وذلك لم يحل مشكلتها . والواقع ان كفاحنا المشترك كان قصير الامد .

كنت اعيش كصبي ، فاتى البلوغ يفسد كل شيء . خصوصا بسبب الجهل الذي كانوا يربوننا فيه . فانا لم احصل على اي شرح لوضع النساء الجسدي ، لا من ابي ولا من امي ، ولو فعلا ، لكان ذلك طبيعيا اكثر .

واذكر اليوم اناني فيه الطمث الاول . لم تكن لدي اية فكرة عما عساه يكون . ففلت لامي : « تلوثت بالدم » . فاجابتني بانها كانت ترغب في التحدث الي . ولم احس حقا بالخوف .

وكنت انتظر الايضاحات بفراغ صبر . وكنت احسني محرومة من هذا الحوار مع امراة . فمع من تستطيع بنت ان تتحاور حوارا كليا اكثر من امها ؟ وكان كل ما قالته لي ايضاحا : « لست بعد بنتا صغيرة، لقد اصبحت فتاة ، فانت تستطيعين اذن ان تتزوجي . » واضافت ، كما لو انه تحذير : « الامر الان مختلف تماما . لا تستطيعين بعد ان تلعبي مع الاولاد . لا تستطيعين بعد ان تركضي كالسابق ، بل يجب ان تكوني حذرة جدا . لقد تغير كل شيء ، ابتداء من اليوم ... »

بقيت على عطشي الى المعرفة ، من غير ان اجرؤ على طلب شيء . لقد تعرفت الى جميع طقوس الصمت والسرية والاحساس بالذات . طقس غسل الفوط الصحية ، على سبيل المثال . يجب ان تحاذري جيدا ، فينبغي الا يعرف احد شيئا . يجب الا يجري الحديث عن ذلك ابدا . »

كان يجب على كل فتاة ، مساء ، ان تغسل فوطها . كان يجب وضعها مساء ، لكي تبتل ، في وعاء تخبئه في زاوية من صحن الدار. وكان يجب الا يراها احد . ثم كان ينبغي غسلها ليلا ، ونشرها في مكان يجهله غير العارفين . وكان ذلك يتخذ ما يشبه صورة الاحتفال التكفيري . وكان مما يزيد الامر فظاعة واشمارا بالذنب ان احدا لم يكن يستطيع ان يوضح لي حقا ما كنت اريد توضيحه . لم اكن افهم لماذا كان علي ان اكون مذنبة .

بالاضافة الى ذلك ، كان هذا التغير الوحشي ، النوعي في حياتي منذ مجيء هذا الدم ، يؤثر علي كثيرا . فان ارى فجاة اني لن يكون لي بعد الان رفاقي الصغار الذين كنت اسبح معهم حتى تنقطع انفاسي، والذين كنت العب معهم بكرة القدم ، والذين كنت اركض معهم في الشوارع ، كان ذلك يبدو لي محنة لا تقاوم .

قالت لي امي : « حين تصبحين « متوعكة » ، فلن تستطيعي بعد

ان تسبحي . » وقد رضخت وقتا طويلا . وذات يوم ، تساءلت فجاة : « ولكن لماذا تراني لا اسبح ؟ لماذا انقطع عن العالم ، وعن نشاطاتي ، وعما يصنع حياتي ؟ لماذا اعيش على الحياد ، كل شهر في هذه الحقبة ؟ » وعزمت بشجاعة على ان اسبح بعد الان ، من غير ان ابلغ اهلي ذلك طبعا . الى اليوم الذي عدت فيه الى البيت بعد نهار طويل قضيته عند رصيف المرفا ، فنزعت امي حذائي واكتشفت رملا فيه ... فكان ان اخذت نصيبي من الضرب .

بل لقد بلغ الامر بهم انهم لم يوضحوا لي ، منذ بلوغي ، ان بامكاني ان ارزق اولادا . انهم لم يقدموا لي اي شرح على صعيد التربية الجنسية . صمت مرهق كان يجعل « الشيء » اشد فظاعة . وكان علي ان اقرا واتعلم وحدي لاعرف كيف كان الاولاد يولدون . واستطعت بتكديس مطالعاتي وبفضل المعرفة الذاتية ، ان اكون لنفسي فكرة دقيقة تقريبا عما يعنيه « فعل الحب » .

لم تربط امي قط بين طمثي وبين الحمل الممكن . كان ينبغي للعلاقة الجنسية خصوصا الا يرد ذكرها . الى حد انها كانت ، حين ينبثق سؤال صبياني ، دقيق بعض الشيء ، تفضل ان تضللنا على ان تقول الحقيقة .

اذكر اني ، اذ كنت طفلة ، كنت غالبا ما ارى امي ، حين كانت تستلقي في السرير الى جانب ابي ، تضع بينها وبينه وسادة طويلة . اشبه بسيف تريستان وايزولت ، موازية للجسمين : حاجزا غريبا . وانتهيت الى ان اسالها السبب ، فاجابتني : « لقد تخاصمت مع ابيك ! » . وبعد ان تكررت هذه العملية ، صرخت ذات مساء : «ولكن ما عساه يكون هذا الذي تتخاصمان من اجله ! » كل ذلك حتى لا تعترف بانها انما كانت تضع الوسادة لتحمي نفسها من « الرجل » كلما كانت في الطمث !...

يجب القول ان هذا الاخراج ، هذا التزوير ، كان يصدر عن مبدا كان يراد تلقينه ايانا باي ثمن : هو اننا كنا غير طاهرات ، مريضات ، في وضع ادنى بالنسبة لمرجعنا الوحيد الدائم : الرجل . وكان شاغلنا الاكبر هو الا نصيبه بالعدوى . غير ان قوانين السلطة الابوية قد فقدت كثيرا من صرامتها : كانت الوسادة تكفي لحفظ ابي من الحيض الاموي . ولكني اذكر ان جدتي التي كنت احبها بحنان لم تكن تقترب اطلاقا من الرجل حين تكون « غير طاهرة » . كانت تنام ارضا ، في ركن من الغرفة ، على حصير من تلك الحصر التي تصنع في تونس . اما جدي ، فقد كان يتمتع طولا وعرضا بالسرير الزوجي...

بالرغم من ذلك ، لم اكن في اعماقي اشعر لا باني غير طاهرة ، ولا باني ادنى في المستوى . غير انهم كانوا يعاملونني على هذا النحو. وذلك كان الاضطهاد حقا . كنت ضحية ، ولكن حذار ! ان الضحية ليست بالضرورة مستسلمة . ذلك الاضطهاد الذي كان يثقل علي ، تحملته . لقد اخترت معسكري . فاتخذت موقفي طوعا الى جانب المضطهدين والضحايا ! واذ ذاك اصبح اضطهادي تمردا ، معركة مفتوحة .

لقد صح عزمي : سافاتل . وليس فقط من اجلي . بل سافاتل من اجل جميع الذين كانوا في معسكري نفسه .

ذلك الفصل العظيم ، احسست به في وقت مبكر جدا . لقد اصبح مرجعي الدائم . لقد لاحظت على الفور ـ وهذا مبسط بعض الشيء ، ولكن من الملائم ان يكون ذلك كذلك احيانا ، في نظرة تمهيدية اولى ـ اننا كنا في عالم مشطور الى نصفين . من جهة ، اولئك الذين كانوا يضطهدون ويفيدون من ذلك ، ومن جهة اخرى المذلون والمهانون ، الضحايا .

كنت لا اتجاوز العاشرة حين كنت اصرخ : « هذا غير عادل ! » ولم يكن اهلي يستطيعون منعي من التدخل في كل آن . وما زلت اسمع ابي يصيح : « وقحة ! تحسبين نفسك محامي العالم كله ! من الذي كلفك بالدفاع عن هذا الشخص ؟ » لا احد ، بكل تاكيد . ولكن كان ثمة ظلم . « والظلم شيء لا احتمله جسميا ! » هذا ما صرخت به في وجه رئيس محكمة كان ينوي الحكم بطرد عائلة كبيرة العدد ، مدقعة الى حد العوز ، لم تكن قد دفعت اجرة منزلها . كان القانون ضدها ، وفي صالح المالك . كان ذلك بديهيا . وكنت انا ، المتمرنة الشابة التي ترافع في واحدة من دعاويها الاولى ، انتفض غضبا . كان الظلم صارخا . فكان ان صرخت . وكان بروتوكول الجلسة مهانا بسبب ذلك. ولكن الحكم ، خلافا لما كان متوقعا وخلافا لكل تشريع ، لم يصدر بالطرد.

في فرنسا ...

اعتقد ان ذلك كان واضحا في ذهني في وقت مبكر جدا . ساكون محامية ، لا اي شيء اخر . وان اكون محامية ، انما كان يعني في نظري ، بكل بساطة ، ان « ادافع » .

كنت قد نجحت نجاحا باهرا في مباراة المنح ، مما اتاح لي دخول الليسيه . وكان علي الان ان اختار اللغات الحية او الانسانيات .

ولم اتردد : ساتعلم اللاتينية والايطالية . كنت اعرف ان اللاتينية ستساعدني في فهم الحقوق الرومانية . منبع الحقوق ذاته . اما الايطالية ، فلانه كان في تونس آنذاك جالية تتكون مما يقارب ٢٠٠،٠٠٠ ايطالي . وكنا نلتقي بهم كل يوم . جميعهم تقريبا من العمال او الاشد عوزا . كانوا بحاجة شديدة الى من يدافع عنهم . وعن التونسيين ، وعن العرب المستعمرين وعن .. النساء .

النساء ، نعم .

ان جميع احزاب اليسار في العالم تهتم بالبروليتاريا ، وبما هو دون البروليتاريا ، وبالقضاء على الاستعمار . والنساء ؟ يبدو ان ليس ثمة سبب للاهتمام بهن « بصورة خاصة » !

ومع ذلك فان الظلم الاول واللامساواة الاساسية كانا في نظري مرتبطين بوضعي كامراة اكثر من ارتباطهما بفقري . جميع الوان الفصل ، وجميع ضروب التمييز ، وجميع العقوبات وجميع الالتزامات كانت تبرر في هذه الكلمات الثلاث : « ما دمت انثى ... » لم يقل لي قط : « ما دمت انثى ، فان لك « هذا » الامتياز . » لم يقل لي قط ما كنت اتمناه ، ما كان يجب ان يكون : « ذكرا كنت ام انثى ، اختاري حياتك . امضي في دربك . قدمي براهينك » . ان عبارة « انا انثى » تمثل في نظري الحالة النموذجية لما يدعى في الحقوق الرومانية Capitis diminutio نقصا في جميع الحقوق ، في جميع الامكانيات.

كنت كاننا بشريا من الفئة الثانية . وكان الافضل لي ان اعتاد ذلك . كانت امي تضرب بي المثل فتقول بلهجة قاطعة : « لقد عاشت جدتك هكذا . وعشت انا هكذا . وستعيشين انت هكذا . فلست انت التي ستغيرين العالم ، في اخر المطاف ! »

اما انا ، فقد قررت ان ذلك لن يجري على هذا النحو . فكيف تراني سواجه الامر ؟ لم اكن اعرف شيئا محددا . لم تكن افكاري بعد واضحة بهذا الصدد . ولكني كنت اعرف اني حين اخترت دراستي في الليسيه كنت اقوم بخطوة هامة نحو مهنتي ، نحو تحرري . كنت اقصد بهذا الاختيار ان افلت من هذا القدر بالتبعية الذي خطته النساء منذ آلاف السنين : الزواج . تغيير العالم ؟ كنت بعيدة عن ذلك . في تلك الحقبة ، كانت المسالة انقاذ نفسي ، وانقاذ نفسي كان يبدا باستقلالي. وقبل كل شيء ، استقلالي الاقتصادي . ذلك لاني وانا بعد في العاشرة ، كنت قد فهمت واحسست بما عساها تكون التبعية ...

لم تكن امي تعمل ، اقصد في الخارج . ذلك انها طوال النهار كانت تهتم بنا ، بتدبير شؤوننا ، بالمنزل ، كانت تكد من اجلنا. بالمال الذي كان ابي يعطيها اياه . وكان عليها في المساء ان تقدم الحساب .

ـ التتمة على الصفحة ـ ٤٨ ـ

قضيـــة النساء

ــ تابع المنشور على الصفحة ــ ٣٧ ــ

تقليد عائلي دون ما شك ، ولكنه كان يتخذ من الاهمية بمقدار ما كان المال يعوزنا .

وكان ابي احيانا يستشيط غضبا . وكنت قد ادركت ، وانا بعد طفلة ، ان حالة الحسابات لم تكن ذات شان كبير في المسألة. والواقع ان كل شيء كان متوقفا على مزاجه المسائي . فاذا كان هادئا ، كان كل شيء يجري على ما يرام . وكانت امي ، وقد اصبح مال اليوم التالي في جيبها ، تنبسط اعصابها . اما اذا كانت الريح مدمدمة ، فقد كان لنا حق لا شك فيه بمشهد خصام ونزاع . وقد رايت امي تلجا الى جميع الحيل ، وتبسط كل سحرها ، وكل لطفها وستعمل انف مداعبة لتجبر ابي على اتخاذ مزاجه الطيب . كل ذلك من اجل ان تدبر معاش اليوم التالي !

وكان هناك ايضا ما تسميه امي مدخراتها التي كانت « تبتزها » درهما درهما من مال المنزل . كانت بحاجة الى هذا الصندوق الاسود للمشتريات التي هي اقل ضرورة من الاخرى . وما كان ابي ليمنحها « ضمانها الاحتياطي » لمثل هذه النفقات ، الضرورية مع ذلك . وانا واثقة من انه كان يعرف بوجود هذا الصندوق . ولئن كان يتظاهر بانه يجهله ، فلم يكن ذلك بدافع لامبالاة . واعتقد ان هذا التظاهر ، وهذه الطقوس ، وهذه الالوان من الاخراج ، كلها كانت تكرس تبعية امي . وكان ابي يرتضي اللعبة بتسامح السيد غير المنازع ، والمعترف به !

ان لعنة النساء الحقيقية هي ان عليهن ان ينفقن المال الذي يكسبه شخص اخر . وقد عرفت في وقت مبكر جدا انني سأعمل اي شيء حتى لا استعطي . وحتى من اجل ان اؤمن دروسي في الجامعة، لم اطلب شيئا من اهلي . ولكني اكرر : لم يكونوا يملكون مالا ، فلم يكن ثمة ما يصدم في الا يعطوني منه شيئا .

كان رحيلي الى فرنسا فرصة لقيام ثورة عائلية صغيرة ! معركة مستمرة طوال ما يزيد على ثلاثة اشهر . « فتاة وحدها ! في فرنسا ! » كانت امي تصرخ كذلك وهي تستشهد السماء . وقد خدمتني بصورة عجيبة قرينة الفترة المباشرة لما بعد الحرب . كانت المواصلات اصعب جدا ، ولم يكن يخرج من تونس في تلك الحقبة من يشاء . كان لا بد من اسباب جدية ، رسمية ، ذات طابع معجل . وهذا ما لم تكن توفره دراسات فتاة تونسية صغيرة من قرطاجة . من اجل هذا ، دون شك ، تركني اهلي اقوم بمساعي بهدوء . كانوا مقتنعين بانني لن انجح في الذهاب . ومن غير ان اتاثر بشيء ، حاصرت جميع مكاتب المندوب السامي في تونس . وكنت اجدد مساعي من دون تعب .

ــ من اذنك ، اريد « امرا ببعثة » .

ــ لاي غرض ؟ (بلهجة آمرة)

ــ اريد متابعة دروسي بباريس .

ــ آه !... ليس هذا بأمر مستعجل .

ــ ولكن علي ايضا ان اذهب لاصطحاب اخي . لقد اعيد ترحيله من معسكر الماني للاعتقال .

وقد استمر هذا الحصار ، دون هوادة ، شهرا ونصف الشهر . وكانوا في مركز المندوب السامي يعرفونني بانني « الطفلة الغريبة التي تريد الذهاب للدرس » واخيرا ، وبعد ان ملوا مني ، ومن اجل اذهب فاشنق نفسي في مكان اخر ، منحوني اذنا بالسفر .

لم يكن ذلك ، بالنسبة لاهلي ، هو المأساة بعد . فان « امر البعثة » كان شيئا ، والحصول على مقعد في طائرة كان شيئا اخر . كان اهلي يعرفون ذلك . وقد اكدت التجربة انهم لم يكونوا على خطا. كنت كل يوم اسلك طريق المطار ، وحقيبتي في يدي . وكل يوم، كنت انتظر حتى ساعة الاقلاع ، وانا احتقر في سري هؤلاء « الاولويين » الذين كانوا ياخذون جميع المقاعد . ولم يكن اسمي لينادى عليه قط. وكنت اذ ذاك اعود الى منزلي ، خائبة ، مذلة . طوال شهر ونصف، ذهبت كل يوم وعدت . ولم اكن اخر الامر لاودع اهلي لفرط ما كنت احسبني مضحكة . كنت الوحيدة حقا التي تعتقد ان دوري لا بد آت .

مهما يكن من امر ، فقد كنت سانتظر حتى ياتي دوري . وقد كان لا مفر له من ان ياتي ! ذات يوم صحبني فيه ابي ، نودي على اسمي اخيرا . فاذا بابي يمتقع وجهه ويسالني : « ولكنك لن ترحلي ؟ » كان لا يزال على عدم تصديقه بامكانية ذهابي . ولكن الاوان كان قد فات . لقد بدأت ، وانا جالسة على مقعد خشبي في طائرة « مارودر » بدأت احلم . كانت تلك الطاردة الانكليزية القاذفة القديمة تدعى « صندوق الدجاج الحبشي » ، وكانت تنهي خدماتها باعادة المدنيين الى اوطانهم. وكنت اجدها رائعة . كان كل شيء يسحرني . للمرة الاولى ، كنت اترك عائلتي واستقل الطائرة . للمرة الاولى ، كنت اقصد هذه الفرنسا، بلد آمالي جميعا ، واحلامي جميعا ، احلام الفتاة الصغيرة المستعمرة المرتهنة لثقافتها بالذات . ولدى وصولي ، استشعرت سكرة حقيقية. كنت اجدني وحيدة مع حريتي .

لم اشعر باي خوف على الاطلاق ! على الاطلاق ! كنت ثملة بالفرح والحرية . في فرنسا ! كنت ذاهبة لمتابعة دراستي ! كان هذا عظيما. وكنت احاول ان اعيش كل دقيقة بمزيد من العمق . وفي الليلة الاولى، لم انم من فرط سعادتي .

لم يكن الامر سهلا ، بالنسبة لي انا الحديثة السن ، التي لا مال لديها ولا غرفة ، ومن حسن الحظ ان اخي الذي ابعد عن الوطن وهو في السابعة عشرة في اثناء المقاومة ، كان قد اعيد الى فرنسا . وبفضله عثرت فورا على عمل ، فاصبحت عاملة تلفون في المقسم الهاتفي لـ « باريس ــ ميليتير » . والحقيقة انها كانت مغامرة عجيبة . كان لا بد اولا من ان اتكلم بالانكليزية : ولم اكن اعرف منها كلمة واحدة . صحيح انني كنت في تونس مع رفاقي نلتقط غالبا المحطات الاميركية لنستمع الى برامج « الهيت ــ باراد » ، فلم تكن النبرات غريبة علي كليا . ولكن ان اتكلم الانكليزية ... كان هذا بعيدا جدا ! ولهذا كان علي طوال ثلاثة اسابيع ان افعل كل شيء في وقت واحد : ان اتعلم استعمال ازرار المقسم الهاتفي وان اتدبر امري بالانكليزية . وعلى هذا النحو ، اذ كنت اربط باريس بجميع ميادين العمليات العسكرية ، وصلت مونتغمري ، وايزنهاور . كل ذلك بالرموز . حقيقة كانت تتخذ مظاهر الخيال .

ولكني كنت قد جئت للدرس ، وما كان لشيء ان يثنيني عن ذلك . كان عملي في المقسم يستغرق الليل . وهنا ايضا ، لم يكن سهلا هذا التدرب على العمل الليلي . ولكني كنت قد اخترت . كنت اشعر انه لم يكن ثمة تعريفان ممكنان لحياتي الجديدة . وكانت كل طاقتي تحملني في اتجاه اختياري . كنا نعمل جماعة ليلتين او ثلاثا متتابعة ، يليها يوما راحة او ثلاثة . وكنت افيد من هذه الراحة لاتردد على الجامعة بمثابرة . وهذا لم يمنعني من ان استعمل في دراستي كثيرا من الدروس المنسوخة . كنت في السابعة عشرة ، وكنت لحسن الحظ في صحة جيدة .

لم اسع حقا الى اتخاذ اصدقاء . ذلك لاني كنت اولا اصغي الى نفسي والى اكتشافاتي . لم اكن فتاة شديدة اللطف . ثم اني اكتشفت، في معهد الحقوق ذاك ، ان العنصرية تقوم ايضا بين الفرنسيين. وهذا ما آذاني كثيرا . كانوا في بلدي يعلمون الفرنسية في المدارس، وتاريخ فرنسا كله . وكنت قد حلمت بوطن حقوق الانسان ذاك ، بوطن تلك الواجهة السحرية : حرية ، مساواة ، اخوة . ان يكون هذا الشعار قد داسه في تونس المعمرون الاوروبيون ، فقد يكون ذلك معقولا ... اما ان يدوسه فرنسيون ، في فرنسا ! ان ذلك لمستحيل ! غير معقول ولا مقبول ! كان علي ان افهم : لماذا ، وكيف اصبحت « جديا قذرا » .. لقد انغلقت على نفسي ، ولم ارد اتخاذ اصدقاء .